شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الأول

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

هذا الذى ذكره الرّاوندىّ خلاف نصّ أهل اللغة ؛ قالوا : أجمعتُ الأمرَ ، وعلى الأمر ؛ كلّه جائز ، نصّ صاحب " الصّحاح "[1] على ذلك .

والمحاسن : جمع حَسَن ، على غير قياس ، كما قالوا : الملامح والمذاكر[2] ؛ ومثله المقابح . والحِوار ، بكسر الحاء : مصدر حاورتُه ، أى خاطبته ، والأنحاء : الوجوه والمقاصد . وأشدّها مُلاحمة لغرضه ، أى أشدّها إبصاراً له ونظرا إليه ، من لمحت الشيء ؛ وهذه استعارة . يقال : هذا الكلام يَلمح الكلامَ الفلانىّ ، أي يُشابهه ؛ كأنّ ذلك الكلام يُلمَحُ ويُبصَر من هذا الكلام .

* * *

قال الرضىّ رحمه الله :

ومِنْ عجائبه عليه السلام الّتى انفرد بها ، وأمِنَ المشاركةَ فيها ؛ أنّ كلامَه الواردَ فى الزّهد والمواعظ ، والتّذكير والزّواجر ؛ إذا تأمّله المتأمّل ، وفكّر فيه المُفكِّر[3] ، وخلَع من قلبه أنّهُ كلامُ مثلِه ، ممّن عَظُمَ قَدْرُه ونفذ أمرُه ، وأحاطَ بالرّقاب مُلْكه ، لم يعترضْه الشكّ فى أنّه كلامُ مَنْ لا حظّ له فى غيرِ الزّهادة ، ولا شُغْلَ له بغيرِ العِبادة ، قد قَبَع فى كِسْرِ بيتٍ ، أو انقطع إلى[4] سَفْح جبلٍ ، لا يَسْمعُ إلا حسّه ، ولا يرَى إلا نفسَه ؛ ولا يكادُ يوقِن بأنّه كلامُ مَنْ يَنْغَمِس فى الحرب ، مُصْلِتاً سيفَه ، فيَقُطُّ الرّقابَ ، ويُجدِّلُ الأبطالَ ، ويعودُ به يَنْطُفُ دماً ، ويقطرُ مُهَجاً ؛ وهو مع تلك الحالِ زاهدُ الزّهاد ، وبَدَلُ الأبْدال . وهذه من فضائله العجيبة ، وخَصائصه اللّطيفة ، الّتى جَمع بها بين الأضْداد ، وألّف بين الأشتات ، وكثيراً ما أذاكِرُ الإخوان بها ، وأستخرجُ عجَبَهم منها ؛ وهى موضع العِبْرَة بها[5] ، والفِكْرَة فيها .

(١) الصحاح ٣ : ١١٩٨
(٢) ب : « المذاكير » ، وما أثبته عن ا .
(٣) ب : « المتفكر » وما أثبته عن ا
(٤) مخطوطة النهج : « فى سفح » .
(٥) كلمة « بها » ساقطة من ب ؛ وهى فى ا

الشرح :

قَبَع القُنفذ يَقبَع قُبوعاً ، إذا أدخل رأسه فى جلده ، وكذلك الرَّجل إذا أدخل رأسه فى قميصه ؛ وكلّ مَنِ انزوى فى جُحْر أو مكان ضَيّق فقد قَبَع . وكِسْر البيت : جانب الخِباء . وسفح الجبل : أسفله ، وأصلُه حيث يَسْفَحُ فيه الماء . ويقطّ الرقاب : يقطعها عَرْضاً ـ لا طولا كما قاله الرّاونديّ ـ وإنما ذاك القَدّ ، قددته طولا ، وقططته عرضاً . قال ابن فارس صاحب " الجمل " : قال ابنُ عائشة : كانتْ ضربات علىّ عليه السلام فى الحرب أبكاراً ، إن اعتلى قَدّ ، وإن اعترض قَطّ . ويُجدّل الأبطال : يُلقِيهم على الجَدالة ، وهى وجهُ الأرض . وينطُف دما : يقطر . والأبدال : قوم صالحون لا تخلو الأرض منهم ، إذا مات أحدهم أبدل الله مكانه آخر ، قد وَرَدَ ذلك فى كثير من كتب الحديث .

كان أمير المؤمنين عليه السّلامُ ذا أخلاقٍ متضادّة :

فمنها ما قد[1] ذكره الرضىّ رحمه الله ، وهو موضع التّعجّب ؛ لأنّ الغالبَ على أهل الشجاعة والإقدام والمغامرة والجرأة أنْ يكونوا ذَوِى قلوب قاسية ، وفَتْكٍ وتمرُّد وجَبْرِيّة ، والغالب على أهل الزهد ورفضِ الدنيا وهِجرانِ ملاذّها والاشتغالِ بمواعظ الناس وتخويفهم المعادَ وتذكيرهم الموتَ ، أن يكونوا ذوِى رقّة ولين ، وضَعْف قلْب ، وخَوَرِ طَبْع ؛ وهاتان حالتان متضادتان ، وقد اجتمعتا له عليه السلام .

ومنها أنّ الغالبَ على ذوى الشجاعة وإراقة الدماء أن يكونوا ذوِى أخلاق سَبُعيّة ، وطِباع حوشيّة ، وغرائز وحشيّة ، وكذلك الغالب على أهل الزهادة وأرباب الوعظ والتذكير ورفض الدنيا أن يكونوا ذَوِى انقباض فى الأخلاق ، وعُبوس فى الوجوه ، ونِفار من الناس

---

(١) كلمة « قد » ساقطة من ب .

واستيحاش ؛ وأمير المؤمنين عليه السلام كان أشجعَ الناس وأعظمَهم إراقة للدم ، وأزهد الناس وأبعدَهم عن ملاذّ الدنيا ، وأكثرهم وعظاً وتذكيراً بأيّام الله ومَثُلاته ، وأشدّهم اجتهاداً في العبادة وآداباً لنفسه في المعاملة . وكان مع ذلك ألطفَ العالم أخلاقاً ، وأسفرَهم وجهاً ، وأكثرهم بِشْراً ، وأوفاهم هشاشة ، وأبعدَهم عن انقباض موحِش ، أو خُلُق نافر ، أو تجهّم مباعِد ، أو غِلْظة وفظاظة تَنفِر معهما نفس ، أو يتكدّر معهما قلْب . حتى عِيب بالدُّعابة ؛ ولمّا لم يجدوا فيه مغمزا ولا مطعنا تعلّقوا بها ، واعتمدوا في التنفير عنه عليها .

* وتلكَ شَكَاةٌ ظاهِرٌ عنك عارُها[1] *

وهذا من عجائبه وغرائبه اللطيفة .

ومنها أنّ الغالب على شرفاء الناس ومَنْ هو من أهلِ بيت السيادة والرياسة أن يكونَ ذا كِبْرٍ وتيهٍ وتعظّم وتغطرُس ؛ خصوصاً إذا أُضيف إلى شَرَفِهِ من جهة النسب شرفُه من جهات أخرى ؛ وكان أميرُ المؤمنين عليه السلام في مُصاصِ الشرف ومعدنه ومعانيه ، لا يشكّ عدوّ ولا صديق أنه أشرفُ خلق الله نسبا بعد ابن عمّه صلوات الله عليه ، وقد حصَل له من الشرف غير شرف النسب جهاتٌ كثيرة متعددة ، قد ذكرنا بعضها ، ومع ذلك فكان أشدَّ الناس تواضعاً لصغير وكبير ، وألينَهم عريكةً ، وأسمحَهم خُلُقا ، وأبعدَهم عن الكِبْر ، وأعرفهم بحقّ ، وكانت حاله هذه في كِلا زمانَيْه : زمان خلافته ،

---

(١) « الشكاة توضع موضع العيب والذم ؛ وعير رجل عبد الله بن الزبير بأمه ؛ فقال ابن الزبير :

* وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظاهِرٌ عَنْكَ عارُها *

أراد أن تعييره إياه بأن أمه كانت ذات النطاقين ليس بعار . ومعنى قوله : « ظاهر عنك عارها » ، أى ناب ، أراد أن هذا ليس عارا يلزق به ؛ وأنه يفتخر بذلك ؛ لأنها إنما سميت ذات النطاقين ، لأنه كان لها نطاقان تحمل فى أحدهما الزاد إلى أبيها وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار وكانت تنتطق بالنطاق الآخر ، وهى أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنها » . اللسان : (١٩ : ١٧١) ، وديوان الهذليين (١ : ٢١) ، وهذا عجز بيت لأبى ذؤيب الهذلى ، وصدره :

* وعيّرها الواشون أنى أحبّها *

والزمان الذى قبله ، لم تغيّره الإمرة ، ولا أحالت خُلُقَه الرياسة ، وكيف تُحيل الرياسة خُلُقَه وما زال رئيسا ! وكيف تُغَيِّر الإمْرة سَجيّته وما برح أميرا لم يستفِدْ بالخلافة شرفا ، ولا اكتسبَ بها زينة ! بل هو كما قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل ؛ ذكر ذلك الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علىّ بن الجوزىّ فى تاريخه المعروف " بالمنتظم " : تذاكروا عند أحمد خلافةَ أبى بكر وعلىّ وقالوا فأكثروا ، فرفع رأسه إليهم ، وقال : قد أكثرتم ! إنّ عليّاً لم تزِنْه الخلافة ؛ ولكنه زانها . وهذا الكلام دالّ بفحواه ومفهومه على أنّ غيرَه ازدان بالخلافة وتمّمَتْ نقصَه ، وأن عليّاً عليه السلام لم يكن فيه نقص يحتاج إلى أن يتمّ بالخلافة ؛ وكانت الخلافة ذات نقص فى نفسها ، فتمّ نقصها بولايته إياها .

ومنها أنّ الغالب على ذوى الشجاعة وقتل الأنفس وإراقة الدماء أنْ يكونوا قليلى الصَّفح ، بعيدى العفو ؛ لأن أكبادَهم واغرة ، وقلوبَهم ملتهبة ، والقوّة الغضبية عندهم شديدة ، وقد علمتَ حال أمير المؤمنين عليه السلام فى كثرة إراقة الدم وما عنده من الحلم والصفح ، ومغالبة هوى النفس ، وقد رأيتَ فعله يوم الجمل ؛ ولقد أحسن مِهْيار فى قوله [1] :

حَتّى إذا دَارَتْ رَحى بَغْيِهِمْ عليهمُ وسبقَ السيفُ العَذَلْ
عاذوا بعفوِ ماجــدٍ معوّدٍ للعفو حَمّــالٍ لهمْ على العِلَلْ
فَنَجّتِ البُقْيَا عليهم مَنْ نجا وأكلَ الحديدُ مِنهم مَنْ أكَلْ
أطّتْ بهم أرحامُهمْ فــلم يُطِعْ ثائرةَ الغَيْظِ ولم يشفِ الغُلَلْ

ومنها أنّا ما رأينا شجاعاً جواداً قطّ ؛ كان عبد الله بن الزبير شجاعاً وكان أبخلَ الناس ، وكان الزبير أبوه شجاعاً وكان شحيحاً ؛ قال له عمر : لو وُلّيتَها لظلْتَ تُلاطِمُ الناس

---

(١) من قصيدة فى ديوانه ٣ : ١٠٩ ــ ١١٦ يذكر فيها مناقب الإمام على وما منى به من أعدائه .

فى البطحاء على الصاع والمدّ . وأراد علىّ عليه السلام أن يحجر على عبد الله بن جعفر لتبذيره المال ، فاحتال لنفسه ، فشارك الزّبيرَ فى أمواله وتجاراته ؛ فقال عليه السلام : أما إنّه قد لاذ بملاذ ؛ ولم يحجرْ عليه . وكان طلحة شجاعاً وكان شحيحاً ، أمسك عن الإنفاق حتى خلّف من الأموال مالا يأتى عليه الحصر . وكان عبدُ الملك شجاعاً وكان شحيحاً ، يُضرب به المثل فى الشحّ ، وسمى رَشْح الحجر لبخله . وقد علمت حالَ أمير المؤمنين عليه السلام فى الشّجاعة والسخاء كيف هى ؛ وهذا من أعاجيبه أيضاً عليه السلام .

***

قال الرضىّ رحمه الله :

وربّما جاء[1] فى أثناء هذا الاختيار اللفظُ المردّد ، والمعنى المكرّر ؛ والعذْر فى ذلك أنّ رواياتِ كلامه تختلفُ اختلافاً شديداً ؛ فربّما اتفق الكلامُ المختارُ فى روايةٍ فنُقِل على وجهه ، ثم وُجِد بعد ذلك فى روايةٍ أخرى موضوعاً غير وضعِه الأوّل ؛ إمّا بزيادة مختارة ، أو بلفظٍ أحسنَ عبارة ؛ فتقتضى الحالُ أن يُعاد ؛ استظهاراً للاختيار ، وغَيْرةً على عقائل الكلام . وربّما بَعُدَ العهد أيضاً بما اختير أوّلا ؛ فأعيد بعضُه سهواً ونسياناً ، لا قصْداً أو اعتماداً . ولا أدّعِى مع ذلك أنى أحيطُ بأقطارِ جميع كلامِه عليه السلام ؛ حتى لا يشِذّ عنّى منه شاذّ ، ولا يندّ نادّ ، بل لا أبعِد أن يكون القاصِرُ عنّى فوق الواقع إلىّ ، والحاصلُ فى ربقتى دونَ الخارج من يدىّ ؛ وما علىّ إلا بذلُ الجهد ، وبلاغةُ الوسع ، وعلى الله سبحانه نَهْج السبيل ، وإرشاد الدليل .

ورأيتُ من بعدُ تسميةَ هذا الكتاب بـ " نهج البلاغة " ؛ إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها ، ويقرّب عليه طِلابَها ، وفيه حاجةُ العالِم والمتعلّم ، وبُغية البليغ والزّاهد ، ويمضى فى أثنائه من عجيب الكلام فى التّوحيد والعدل ، وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن شَبَه الخلق ، ماهو بِلال كلّ غُلّة ، وشِفاء كلّ عِلّة ، وجِلاء كلّ شبهة . ومِنَ الله أستمدّ التوفيق والعِصْمة ، وأتنجّزُ التّسديد والمعونة ، وأستعيذه من خطأ الجَنان قبل خطأ

(١) ب : « كان » .